بريتنباخ : هذا الشاعر الذي يريدون خنقه

قررت سلطات بريتوريا القيام بمحاكمة جديدة لاكبر شاعـر في افريقيـا الجنوبية . ذلك الشاعر الذي حكموا عليه في نونبر 1975 بتسع سنوات سجنا . فما هو السبب في أن السلطات العنصرية صارت لا تتحمل وجوده ؟
هذا ما يعرضه الكاتب الفرنسي جيروم بنيو .

عاش بيرتنباخ عدة سنوات في فرنسا . متزوج بفرنسية مـن أصـل فيتنامي ، استحالت عليه العودة الى وطنه بسبب ما سمي منذ ذلك الحين بـ « تغريم بريتنباخ » . ورغم ذلك فقد زار بلاده مرتين : الاولى رسميا في نهاية 1972 ، والثانية سريا ، في غشت 1975 ، ألقي عليـه القبض خلالهـا بمقتضى « قانون الارهاب » الذي صدر في يونيه 1967 .

ألقى بريتنباخ ـ خلال الزيارة الاولى ـ بجامعة الكاب تلك المحاضرة الشهيرة التي خلفت أثرا عميقا . هناك ، وبمحضر شخصيات مقربـة مـن الحكومة ، حض شعبه على استيعاء الواقع الذي هو واقعه « **اننا شعب هجين ذو لغة هجينة ، بل ان طبيعتنا نفسها هجينة ، وهذا هو الافضل والاحسن . يجب أن نكون مختلطين غير متعصبين ولا مترابطين حتى نستطيع الارتباط بأشكال أخرى ، غير أننا وقعنا في مصيدة الهجين (الابن الالاشرعي م. ب.) الذي تسلط على الحكم . ويوجد في هذا الجزء من دمنا الذي ينحدر من أوروبا لعنة الاحساس بالتفوق . لقد أردنا اصباغ الشرعية على قوتنا ، ومن أجل تحقيق ذلك كان لا بد من الدفاع عن هويتنا القبلية المزعومة . كان لا بد من أن نحارب ونحطم وننتقص . كما كان من الواجب علينـا أن نتحصن خلـف تميزنا وفي نفس الوقت أن نحافظ على ما كنا قد غنمناه . لقد جعلنا من هذا التباين المعيار والقاعدة والمثال . ولان هذا التباين يقوم** على حساب **اخواننا الافريقيين الجنوبيين فاننا نحس باننا مهددون . لقد بنينا الاسوار . لم نبن مدنا ، ولكننا أقمنا قلاعا ، وككل الابناء غير الشرعيين والمتيقنيـن قليـلا نبوتهم بدأنا في الصاق مفهوم الصفـاء** Pureté **; انـه التمييـز العنصـري . »**

واذا كان بريتنباخ ـ أكبر شعراء افريقيا الجنوبية ـ اختار مقاومـة القمع ، فان لذلك دلالته . اما اذا كان بعد ربالافريكانس Afrikans وليس

بالانجليزية ، كما يفعل السود الذين يدافع عن قضيتهم ويناضل من أجلها فان لذلك دلالة أكثر قوة . والواقع أن شعراء افريقيا الجنوبية غير البيض (السود مثلهم في ذلك مثل «الملونين » اذا أردنا استعمال تعبير الشاعر الملون آدام سميل A. Small) قد أظهروا منذ زمن طويل رفضهم التعبير بالافريكانس (وهيَ لغة أكثر افريقية بالنسبة للافريقي من الانجليزية) على أساس أن استعمال (الافريكانس) مرادف للميز العنصري .

وبريتنباخ ليس فقط واعيا بهذا الخلط ، ولكنه احتج ضده باختراع كلمة « آبارتانس Apartaans » ليسمي بها لغته الام .

ولكنه تعود أيضا ـ كما يشرح ذلك مترجمه الى الفرنسية جورج مارى لورى J. M. Lory ـ على توظيف كل الثروة التي يوفرها الاصل الجرماني للغته . وفضلا عن ذلك فانه قد وعى أن الاحداث في بلاده قادرة أيضا على ان « **تضمن عنصر الحياة والدوام للافريكانس** » .

والحاصل أن كل لجوء الى الاعتقاد بأن هذا المسار الذي اختاره بريتنباخ للغته من أجل التعبير عن استهجانه وشجبه لسياسة الميز العنصري انما هو في الحقيقة يشكك ومن الداخل ، اذا أردنا التعبير ، فيما يكون الاساس والجوهر نفسه لسلطة بيض جنوب افريقيا .

وقد كتب برنارد نويل B. Noël في مقدمة **النار الباردة** ، التي هي مجموعة شعرية نشرها كريستيان بورجوا ـ مايلي بكيفية حاسمة « **لقد جرؤ على أن يقول في لغته ما لا يجب أن تقوله لغته . ولا يمكن لاية سلطة في هذه الحالة أن تحاكمه مجابهة لانه يجد بعليها حينئذ أن تخرج لسانها الخاص لترى بأ بشيء هو محمل ، وهكذا فانهم يحاكمونك ـ حسب الامكنة ـ سواء بالطعن في رئيس الدولة ، أو الطعن في العادات أو الحزب ، ولكنك لا تحاكم في أي مكان كان بسبب تحويل اتجاه الحديث العمومي ... »**

ولا يقوم قضاته ، حينما يسجنونه ويعذبونه ، بأي شيء سوى تطبيق ما يقتضيه « **قانون الارهاب** الصادر عن حكومة فورستر سنة 1967 والذي يقول بالحرف « **ان كل عمل أو نشاط يمد يد المساعدة أو يشجع حركة سياسية هدفها احداث تغيير اجتماعي أو اقتصادي يعتبر ارهابا .** »

ان الناس يتحدثون (وليس بالقدر الكافي) عن عصيان بريتنباخ ، وعن شجاعته ، وعن تضحيته واستشهاده ، ولكنهم قلما يتحدثون عن أعماله، وكأنه لا يستحق أن يعتبر شاعرا كبيرا لو لم يكن أيضا ثوريا . فلا فصل بين ما يكتبه الشاعر وبين ما هو . اليوم ، أكثر من أي وقت مضى ، نجد أن الدم والمداد يصدران عن النفس (بالفتح) عينه . يوضع بريتنباخ بشكل نموذجي أن لغة الشاعر الاولى هي عمله ، وأفعاله ونضاله : أي الشعر نفسه . لقد حدد هو ذاته أن « **العمل الفني سياسي في الوقت الذي يعود فيه الى الواقع الذي يوجد فيه الجمهور ، في هذا البلد بلد تعدد ألوان الدفن المر والحزين . كل حديث**

هو حديث سياسي ... ليس ذلك اختبارا للكاتب وليس استعمالا حسنا أو سيئا للحرية الشعرية (والا فلماذا نجد أن للمهرج حرية أكثر من L'O.S. ؟) انها طبيعة التواصل نفسها . »

واذا كان القسم الاول من « **نار باردة** » مكونا كله من قصائد غرامية فان الديوان مشتمل كذلك على « **رسالة من الخارج الى الجزار** » الموجهة الى بالتزارجون فورستر الوزير الاول في جمهورية جنوب افريقيا . لا يمكن أن نحب من نحبه دون أن نقلق في نفس الوقت بسبب اننا نعذب ونغتال . وفيما يخص بريتنباخ فان حبه لزوجته وحبه لرفاقه في النضال يتشابكان ويتقاطعان .

كتب برنار نويل « **ان القانون لا يحيل الا على السلطة ، وليس على العدالة ، والقانون الذي يستطيع أن يحاكم القانون هو دائما قانون غريب ، وليست الشرعية هذا الوطن السائد وهذا المكان المتسامي الذي تريد أن تكونه، الشرعية امتلاك للسلطة ، لا شيء غير ذلك ، ولا شيء زيادة على ذلك ، ويكون الميز العنصري شيئا عادلا تماما تحت حكم ب. ج. فورستر ومساعديه ، ومن يشبهه . وأنا لا أقول هذا باسم القانون لان الحكومة الفرنسية قد باعت مركبين نوويين للميـز العنصـري .**

ليس المركبات النووية فقط . ففي 19 يونيه الاخير أدان المؤتمر العالمي لمحاربة الميز العنصري ، فرنسا على الخصوص ، لانها ضربت عرض الحائط بمقررات الامم المتحدة حول الموضوع وأمدت النظام العنصري في بريتوريـا بمساعدات عسكرية جد مهمة .

لقد قال بريتنباك ، في خطاب الكاب الذي وجهه الى مبيضي Blanchatres بلاده : « **ان ما هو موجود في هذه البلاد مقترف باسمنا (اسمى) وفي لغتنـا (لغتي)** » وعن المركبات النووية والاسلحة المسخرة يجـب علينـا نحـن الفرنسيين أن نواجه أنفسنا ونقول : « ان الميز العنصري يقترف كذلـك باسمي وباسمنا » . ومن هنا أليس لنا ـ في الوقت الذي تفتتح فيه محاكمة بريتنباخ ـ من حق سوى الصمت وحده ؟ .

لومتان الباريسية 29 يونيه 1977
نقله الى العربية **محمد البكـري**